الفصل السابع والعشرون

عرب الأندلس

الأمويون

٣٠٠ — ٣٦٦ هـ ، ٩١٢ — ٩٧٦ م

عبد الرحمن الثالث (الناصر) — الحكم الثاني (المستنصر)

ولاية عبد الرحمن الثالث — قمع الثوار — الحروب مع قبائل النصارى — تلقيبه بأمير المؤمنين — ثورة الجلالقة — إدخال الصقالبة فى الجيش — موقعة الخندق — القبائل تطلب الصلح — مد الحدود إلى إبرو — الحرب فى أفريقيا — استئناف الحرب مع الجلالقة — طرد سانكو — سانكو يستنجد بعبد الرحمن — ليون — قشتالة — نافارا — وفاة عبد الرحمن — أخلاقه — ولاية الحكم الثانى — حكمه — انتصاره على الجلالقة وأهل نافارا — غزو أفريقيا — حب الحكم للعلم — قرطبة — عظمة قرطبة — حدودها — الزهراء — الفروسية

عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)

توفى الأمير عبد الله فخلفه حفيده عبد الرحمن[1] غير متجاوز الثانية والعشرين من عمره ، وكان قد ولى الملك برغم وجود أعمامه وأقاربه وهم أكبر منه سناً وأكثر خبرة ، ففرحوا به واتخذوه فألا حسناً . ويقول المؤرخون[2]

---

(١) يقول ابن الأثير : إن أباه محمد قتل بأمر عبد الله ، وكان ابنه محمد لم يكن قد جاوز الثلاثة أسابيع من عمره ، غير أن جده الكهل اعتنى بتربيته اعتناء كبيراً ليعوض الطفل الصغير من القسوة التى عومل بها أبوه .

(٢) وفى ذلك يقول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد :

بدا الهلال جديداً والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدى إن كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد

إن أهله توسموا فيه آيات العظمة والبطولة ، ورأوا فيه خير ناهض بالإمبراطورية الأموية المزعزعة الأركان .

السياسة الرشيدة

فاعتزم أن يتخلى عن سياسة المسالمة والتردد التى اتبعها أجداده ، واتخذ لنفسه خطة جريئة حازمة فى معاملة الثائرين والعصاة ، ولم يرض أن يسلك فى ذلك سبيلا وسطاً ، بل أعلن لجميع الثائرين الأسبانيين والبربر والعرب أنه لا يقنع منهم بالجزية بل يريد الاستيلاء على حصونهم ومدنهم ، فإذا قدموا خضوعهم عفا عنهم ، وإذا أبوا تعقبهم واشتد فى عقابهم ، فأذعنت معظم المدن الخطيرة من تلقاء نفسها .

وفى نيسان سنة ٩١٣ م ظهر عبد الرحمن فى الجيش فأثار ظهور الأمير الفتى فى صفوفهم حماسة شديدة ، وبالأخص عند ما علموا أنه لا يرغب فى مشاطرتهم الانتصارات فحسب ، بل أقدم على مشاطرتهم الآلام والمشاق ، وقد أثر هذا العمل المجيد أيما تأثير فى معنوية الجنود ، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى أخضع عبد الرحمن ولاية ألبيرا وجيان ، ثم استولى على أمنع المعاقل وأباد اللصوص والعصاة فى هاتيك المناطق ، كذلك كان نجاحه فى جبال سيارا نفادا الشامخة لا يقل عن نجاحه فى السهول المنبسطة ، وكان يفرق شمل العصاة أو يقتل زعماءهم ، وما هى إلا لحظة حتى عرض محمد بن إبراهيم بن حجاج الذى خلف أباه فى ولاية أشبيلية طاعته . وقد بدأ أهلها فى بادئ الأمر يدافعون عن المدينة ، ولكن بعد أن حاصرها عبد الرحمن مدة قصيرة سقطت فى قبضته ، ثم سار الأمير لقتال الثوار فى سيارا دى ريجيو (يسميها العرب ريه) ، وأخضع زعماءهم ، وألقى المسيحيون الأسبانيون الذين كانوا أشد أعداء الملك سلاحهم متأثرين بكرم الأمير وحزمه ؛ ويقول أحد المؤرخين المسيحيين « ومهما يقل عن تصرف الحكومة فإنها أبدت تسامحاً وكرماً فى معاملة النصارى »[1] . وتوفى ابن حفصون سنة ٩١٧ م ، غير أن

(١) دوزى .

الحرب لم تنته بوفاته إذ ظل الأمير محتفظاً بجيشه الكبير فى سلسلة تلك الجبال لمدة عشر سنوات كاملة . وفى سنة ٩٢٨ استولى الأمير على بيشتر و بعض القلاع الأخرى ودمرها تدميراً ، وقدم الأمراء فى الغرب طاعتهم كذلك ، ولما اطمأن الأمير إلى الأحوال فى الجنوب سير جيوشه على الثائرين فى الولايات الشمالية والشرقية ، ثم استولى على بطليوس بعد حصار دام أكثر من سنة . وكانت طليطلة قد ثارت مرة أخرى بتحريض من زعيم قبائل ليون المسيحى ، فأرسل الأمير إلى تلك البلدة الثائرة المتصلبة وفداً من العلماء يدعوهم إلى الطاعة والولاء فرفضوا إجابة طلبه بإباء معتمدين على مساعدة الليونيين ، ولما وجد الأمير أنه ليس ثمة ما يفيد مع أهل المدينة سوى القوة ، اتخذ على الفور إجراءات حازمة وجدّ فى حصارها مدى عامين ، فلما كادت تنفد مواردها سلمت دون قيد أو شرط وأخيراً استأصل عبد الرحمن بذور الفتن وأصبح أمير البلاد دون منازع .

الاستيلاء على بيشتر

ولكنه لم ينس فى أثناء انهماكه فى إخضاع الثوار داخل المملكة أن ينتهز الفرص لمقاتلة عدوين ، كان هو على يقين من عدوانهما وسوء نياتهما نحو الأندلس : أولهما الوطنيون المسيحيون أو قبائل الشمال ، وثانيهما الفاطميون فى أفريقيا .

وفى أواسط القرن الثامن عصف بأسبانيا قحط مخيف دام خمس سنوات ، وهاجر بسببه كثيرون إلى أفريقيا ومعظمهم من العرب الذين كانوا قد استوطنوا تلك الجهات عقب الفتح الإسلامى .

فانتهز الثوار من أهالى جليقية هذه السانحة وثاروا على الأمير ، ثم فتكوا بجمع غفير ممن بقى حيا من العرب وانتخبوا الفونسو زعيما أو ملكا عليهم ، ولم تكد تمضى بضع سنوات حتى استوحش البربر لفقد مواطنيهم ، ولا سيما أنهم أصبحوا الآن قلة فى تلك الأصقاع ، فأخلوا عدة مدن مهمة مثل استورقة وليون وسموره (زامورة) وشلمنقه وأسقوبيه وميرانده ، ولم يحاول الفونسو مع ذلك الاستيلاء

نصارى الشمال

على البلاد المهجورة ، فاكتفى بقتل من بقى فيها من المسلمين القلائل ثم ارتد إلى جباله . وانتهز من خلفه من أمراء ليون فرصة الحروب الداخلية التى كانت تمزق أوصال الدولة الإسلاميـة ليجعل بها مقاطعة ليون حاضرة دولتهم . وفى منتصف القرن التاسع لما فاضت الأندلس بالثورات الداخلية دفعوا حدودهم إلى نهر دورو وأنشأوا هنالك أربع قلاع منيعة كانوا يتخذونها قاعدة للإغارة على الحدود الإسلامية ومطاردة المسلمين العُزّل بالسيف والنار ، وقد كانوا من الفقر والهمجية بحيث كانوا يتعاملون فى البيع والشراء بالمقايضة ، فكانوا لهذا ينظرون إلى ثروة الأندلس الوافرة وخيراتها الجزيلة بعين الطمع ويعدونها فريسة سائغة يمكن التقامها ، وكانوا على الجملة متعصبين قساة القلوب ، وكانوا كلما استولوا على مدينة من المدن قتلوا النساء والأطفال والشيوخ من غير ما شفقة ولا رحمة ، ولم يكونوا يعرفون قط معنى للتسامح الذى اشتهر به العرب فى معاملتهم للمسيحيين فأى مصير كان ستؤول إليه حالة المسلمين فيما إذا كان هؤلاء القوم القساة يحتلون تلك البلاد .

الإغارات المتواصلة

لقد كانوا يمقتون الحضارة العربية التى كان يبهر ضياؤها أعينهم ، فكان على عبـد الرحمن أن ينقذ مملكة الأندلس وحضارتها الزاهرة ، كذلك كان الأمير الشاب يفهم جيداً المهمة الملقاة على عاتقه ، ولقد عمل على ذلك بعزم لا يقل عن العزم الذى قمع به الثائرين فى داخل البلاد .

ولم يك عبد الرحمن ينوى محاربة ثوار الشمال ، بل كان يفضل دوام الصلح بينه وبينهم غير أنهم اضطروه إلى الحرب . وفى سنة ٩١٤ م ثار الليونيون بقيادة زعيمهم أوردونو الثانى واجتاحوا مقاطعة ماردة ونهبوها وعاثوا فيها بالسيف والنار وأسروا وذبحوا سكانها ، ثم استولوا على قلعة ألَيْنا وقتلوا جميع سكانها الذكور وسبوا النساء والأطفال ، ثم عبروا نهر الدورو مثقلين بالغنائم والأسرى .

سنة ٩١٤م

واكتفى عبد الرحمن بالرغم من انهماكه فى محاربة الفاطميين فى أفريقيا

بإرسال جيش بقيادة وزيره أحمد بن أبي عبيدة لمعاقبة ملك ليون فهزم المسيحيين وغنم منهم غنائم كبيرة ، ولكنهم أصيبوا بهزيمة منكرة بالقرب من سانت استيفان ، فتشجع أردونو وحليفه سانكو (شانجه ملك نافارا) فعاث فى ضواحى ناجيرا وطليطلة ، واستولى سانكو على منطقة فالتيرا . وفى العام التالى عاد أردونو فعاث فى منطقة لافيرا وأحرق مدنها وضياعها ، فضج المسلمون من ذلك ، وعزم عبد الرحمن على أن يلقى درساً مهما كلفه الأمر على القبائل المسيحية لن ينسوه ؛ وفى تموز سنة ٩١٨ أرسل جيشاً كبيراً بقيادة حاجبه « بدر » على الثوار الذين كانوا معتصمين فى الجبال فهزمهم وألحق بهم خسائر فادحة .

انهزام أردونو

ولما تأكد عبد الرحمن أن أهل ليون لم تضعف شوكتهم سار فى حزيران سنة ٩٢٠ على رأس جيشه فاستولى على أوسمه وسان استيفان وككونيا وعدة قلاع أخرى ، وبعد أن ترك حامية صغيرة فى منطقة ليون سار إلى نافارا ، فألحق قائده محمد بن لوك بسانكو زعيم أهالى نافارا خسائر فادحة ، ولما لم يستطع سانكو صد جيوش الأمير بنفسه استنجد بأخيه زعيم الليونيين ، واعتزم الملكان عندئذ أن يوحدا صفوفهما ويهاجما المسلمين واستعصما بالجبال الواقعة على الحدود وانقضا على الجيش الإسلامى حين مروره فى مفاوز البرنيه الضيقة وألقوا عليه من علٍ الحجارة الضخمة والحصباء ، وشعر الجيش الإسلامى بالخطر المحدق به ، وحالما وصل بجيشه إلى جونكيرا حيث يتحول الممر إلى سهل متسع أمر جنوده بأن تعسكر هناك ؛ ويقول دوزى : « إن النصارى ارتكبوا هنالك غلطة فاحشة ، فإنهم بدلا من البقاء فى حمى الجبال نزلوا إلى السهول وقبلوا محاربة المسلمين بجرأة دفعوا ثمنها هزيمة منكرة ، وطاردهم المسلمون حتى أخفاهم ظلام الليل عن أعينهم وأسروا كثيراً من زعمائهم ومن بينهم أسقفان كانا يحاربان كجنديين » .

وبعد هذا النصر المبين لم يلق الأمير أية مقاومة فاقتحم نافارا وخرب قلاعهم وحصونهم ، ووصل عاصمة ملكه على رأس جيشه المظفر فى ٢٤ أيلول .

وفى سنة ٩٢١ م ثار من جديد أردونو وسانكو ، فانقضا فجأة على ناجيرا وفجويرا وقتلا كل من فيها ، ومنهم كثير من العرب الذين ينتمون إلى أشهر الأسر ؛ ولم يكن ثمة مناص من مجاراة الرأى العام فى طلب الانتقام ، ومع أن الأمير لم يكن يود إثارة الحروب إلا أن قلبه كان يفيض سخطاً لما يرتكبه المسيحيون من التدمير والسفك المستمرين فى المقاطعات الشمالية ، فلم يصبر على انتظار فصل الربيع بل سار توًّا إلى ميدان القتال فدخل نافارا فى العاشر من تموز ، وكان اسمه كافياً لإلقاء الرعب فى قلوب المسيحيين ، ففر العدو عند اقترابه من قلاعهم وحصونهم ، وحاول سانكو عدة مرات صد الأمير عن زحفه ولكنه باء بالفشل والهزيمة ، وتوصل عبدالرحمن إلى بمبلونه عاصمة سانكو التى فر سكانها رعباً منه ، فدمرها وخرب قصور الملك والأمراء عقاباً لهم ، وبذا تم إخضاع زعيم البشكنس الذى أصبح بعد هذا عاجزاً عن أن يلحق بالمسلمين أذى ، ونال الأمير نجاحاً مماثلا بالقرب من ليون ، وقد ساعدته الحروب الأهلية التى نشبت بين أبناء أردونو سنة ٩٢٥ على أن يوطد سلطته و يقمع الفتن والثورات داخل بلاده ؛ وهكذا استطاع أن يوطد الأمن فى كافة أنحاء البلاد . وكان الأمراء الأمويون فى الأندلس قد اكتفوا بلقب الأمير أو السلطان ويرون أن لقب الخليفة وأمير المؤمنين مقتصر على حامى الحرمين[1] ، فلم يتخذوا سمة الخلافة ما دام العباسيون يملكون مكة والمدينة وتقرأ الخطبة باسمهم فيهما ، ولكن الحوادث تغيرت تغيراً يذكر ، إذ أن دولة العباسيين دخلت فى دور الانحلال وأصبح الخليفة الراضى أسيراً فى قصر بنى بويه ، واستولى المعز الفاطمى على الحرمين ، فرأى أمير قرطبة بطبيعة الحال أن الاحترام الذى كان يبديه أمويو أسبانيا نحو خلفاء بغداد فى غير محله ، فأباح لنفسه عندئذ أن يتخذ سمة الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين ، وأجريت البيعة له فى حفل حاشد يمثل جميع طبقات الأمة ، ولقب بالناصر لدين الله :

اتخاذ لقب أمير المؤمنين

(١) المسعودى .

وفى سنة ٩٣٣ استولى رامير الثانى على ولاية ليون بعد أن سمل عينى أخيه الفونسو الرابع وعيون عدد كبير من أقاربه ، وكان رامير يحمل حقداً بالغاً على المسلمين ، وحالما استولى على السلطة بدأ يزحف على البلاد الإسلامية .

هجوم رامير

فسار عبد الرحمن فى الحال على رأس جيشه لمقابلته ، وبذل جهداً كبيراً فى سحبه إلى ميدان القتال ، ولكن رامير رأى من إصالة الرأى أن يظل وراء أسوار وشحه ، فترك الخليفة فرقة تراقب رامير فى تلك المدينة ، وواصل سيره نحو الشمال حيث كان الليونيون والجلالقة قد وحدوا صفوفهم ، وكان سانكو قد توفى واستولى ابنه كارسيا على نافارا تحت وصاية أمه تيودا التى كانت تحمل فى قلبها بغضا نحو العرب لايقل عن بغض رامير لهم ، فاكتسح الخليفة قلعة ألبه ، وهدم قلاع الجلالقة وحصونهم حتى أصبحت أطلالا دارسة ، وأصبح رامير عديم الحول لايستطيع أن يوقف العرب عن تدمير برغش أهم نقطة فى تلك المعاقل . وفى تلك المرحلة اكتسب مسيحيو الشمال حليفا عظيم القيمة فى شخص حاكم سرقوسه الثائر (محمد بن هشام[1]) الذى ثار على سيده لما لحق به من الحيف على زعمه . وهكذا أصبح الشمال كله ثائراً على عبد الرحمن وتحرج الموقف ، غير أنه عالجه بنشاطه المعهود ، فحاصر سرقوسة محاصرة لاهوادة فيها حتى قدم الثائر طاعته فصفح عنه وأعاده إلى مركزه السابق ، ولكن رجال القبائل لم يعاملوا بنفس الرحمة التى عومل بها زعيمهم ، فاكتسح الخليفة بلاد البشكنس ، وفرضت الجزية على المدن والقرى ؛ وبعد أن قاومت الملكة تيودا جيش الخليفة الذى أوقع بها الخسائر مرة تلو المرة طلبت بعد مدة قليلة الصلح فأجيبت إلى ذلك ، وتم للخليفة الاعتراف بسلطانه فى نافارا ؛ وكان رامير قد لحقت به هزائم شديدة بحيث لم يجسر على مجابهة جيش الخليفة فى ميدان القتال ، وتوارى فيما وراء التلال ، وفيما عدا ولاية ليون ، وقسم من كتالونيا التى كانت تابعة لفرنسا

(١) يسميه ابن خلدون هشام ويسميه دوزى هاشم .

أصبحت أسبانيا برمتها الآن تحت أقدام ملك قرطبة العظيم .

إدخال السلافيين فى خدمة الدولة

أخذ عبد الرحمن نظراً لسخطه على الأرستقراطية العربية يعهد بالمناصب إلى الأجانب ، وكان معظمهم من الأرقاء والمماليك كالألمان والفرنج والإيطاليين والإسكندناويين والروسيين وما إليهم ، ولما كان هؤلاء يؤتى بهم أطفالا بواسطة تجار من البندقية وجنوه و بيزا ليباعوا بيع الأرقاء لعرب أسبانيا ، فقد كانوا يعتنقون الإسلام ويتعلمون اللغة العربية بسهولة ويربون تربية راقية حتى كان يعهد إليهم بعد بأهم الوظائف ، وكان الناصر يحيط نفسه برهط منهم ، فأطلق عليهم اسم الصقالبة أو السلافيين ، وقلدهم أهم المناصب فى الجيش والحكومة ، وكان الناصر يرغم أشراف العرب ورؤساء القبائل ذوى النفوذ والعصبية على الخضوع لهؤلاء الصقالبة ، فأثارت هذه المحاباة سخط القبائل العربية وأشرافها . وفى سنة ٩٣٩ ثار الجلالقة وأهل البشكنس على الخليفة ، فحشد جيشه وتأهب لمحاربتهم ، ولكنه ارتكب خطأ فاحشا إذ عهد بالقيادة إلى صقلبى اسمه « نجدة » ، فسخط عليه ضباط العرب وثار كبرياؤهم وتغيرت نفوسهم ، فأقسموا أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند نشوب المعركة الحاسمة ، وهنا تختلف الروايات اختلافا بيناً فى سبب موقعة الخندق وهزيمة جيش المسلمين ، فيقول المسعودى والمقرى : « إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على زامورا (سموره) عاصمتها ، وكانت فى غاية المناعة يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان قد أحكمتها الملوك السالفة ، و بين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتمى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، وساد الاختلاف بين المسلمين ، فهزموا هزيمة شديدة (حتى قدر بعض المؤرخين قتلاهم بخمسين ألف) ؛ ويقول المسيو كوندى : « إن العرب بالرغم من المقاومة التى لاقوها أمام الخندق ، وبالرغم من هزيمة بعض جيوشهم استمروا على الهجوم واخترقوا الخنادق فوق جثث زملائهم

إذ انقضوا على المسيحيين الذين تراجعوا أمامهم وفروا هاربين إلى المدينة يطاردهم المسلمون ؛ وأصبح ذلك المكان ميدانا مملوءاً بالأشلاء ، ولم ينج من هذا المصير المروع سوى النساء والأطفال » ، وتعرف هذه الموقعة التى نشبت داخل أبواب زامورا بموقعة الخندق ؛ غير أن دوزى يروى رواية أخرى تختلف اختلافا بينا عن الرواية العربية ، وهو يستقى معلوماته من التواريخ الأسبانية المسيحية ، فيقول : « إن جيش المسلمين هوجم من قبل الأعداء بظاهر قرية الخندق على مقربة من سلمنقة ، فانهزم العرب وانكشف جناحاهم ، فهجم عليهم الليونيون والنافاريون على القلب الذى كان مؤلفاً من جنود الخليفة ، فحارب الصقالبة باستبسال عظيم حتى كادوا أن يفنوا على آخرهم » .

غير أن الهزيمة التى لحقت بالخليفة داخل أسوار زامورا لم تثبط من عزمه أو تقلل من نشاطه ، فجهز فى الحال جيشاً آخر وسار به على الجلالقة والبشكنسيين فانتقم منهم شر انتقام . وفى تشرين الثانى سنة ٩٤٠ م ألحق حاكم بطليوس برامير هزيمة منكرة وأعمل السيف والنار فى بلاده ، وظلت هذه الحملات متصلة الحلقات بضع سنوات حتى ضعفت معنوية القبائل . وفى سنة ٩٥٥ م طلب أردونو الثالث ابن رامير المتعصب وخليفته الصلح ، فأجيب إلى ذلك ، وعقدت معاهدة سلم بينه وبين الخليفة بشروط شريفة للطرفين اعترف فيها زعيم الجلالقة بسلطان الخليفة ، وأن يتجنب أى عمل عدائى أو التآمر مع مسيحى الأندلس أو أى دولة أجنبية أخرى ، وأن يهدم فى خلال مدة معينة حصونه الرئيسية القريبة من ثغور المسلمين ، وألا يغزو الأراضى الإسلامية ، وتعهد الخليفة من جهته بأن يحترم استقلال نافارا وليون ، وأن يكتفى منه بالجزية والطاعة ، وبنتيجة هذه المعاهدة أعيدت الحدود الإسلامية إلى الأبرة وأصبحت تمتد من طرطوشة على نهر أبرة قرب مصبه ببحر الروم ، وهى تعد من أشهر المعاقل ، ثم تمتد إلى حصن أفراغة ثم إلى لريدة على ساحل المحيط الأطلنطيق .

الحروب فى أفريقيا

وبينما كان عبد الرحمن منهمكا فى محاربة قبائل الحدود حدثت بالمغرب الأقصى حوادث اضطرته إلى دخول ميدان القتال هنالك ، فلأجل أن يصون بلاده من الدعوة الفاطمية ، ويحول دون انتشار نفوذ المهدى فى المغرب الأقصى شرع منذ سنة ٩١٧ م يسدى المساعدات اللازمة للإمارات الصغيرة فى غربى أفريقيا ، ولم يكن يخامره أدنى شك فى أن المهدى كان يكاتب الثائر عمر بن حفصون ، وقد لاقى الخليفة نجاحا فى بادئ الأمر ؛ ولكن المعز عند ما اعتلى عرش الخلافة الفاطمية سير جيشاً على القوات الأندلسية الصغيرة التى كانت باقية فى أفريقيا بعد أن تركها معظم الجيش الأندلسى للاشتراك فى محاربة القبائل المسيحية وطردها بسهولة من أفريقيا ، ولم يبق فى يد خليفة الأندلس غير ميناء كيوتا ، وهى مفتاح القسم الشمالى من المغرب الأقصى (موريتانيا) . وبعد عقد معاهدة سلم مع أردونو الثالث رأى الخليفة المنهوك القوى أنه أصبح فى وضع يستطيع معه توجيه جهوده الكاملة شطر أفريقيا ، غير أن وفاة أردونو جعلته يقلع عن غزو الدولة الفاطمية ، وذلك أن سانكو الذى خلف أردونو فى إمارة جليقية وليون ، رفض أن يتقيد بالمعاهدة التى وقعها أخوه ، فاضطر الخليفة إلى أن يستخدم الجيش ضد العشائر الثائرة بعد أن كان قد اتخذ عدته للزحف به على أفريقيا ، فعهد إلى قائده الشجاع أحمد بن علاء حاكم طليطلة بقيادة الجيش ، وفى شهر تموز سنة ٩٥٧ م نال نصراً باهراً على الجلالقة والليونيين .

إبعاد سانكو

وكان سانكو قد سلك مسلكا سيئاً مع رعيته فثاروا عليه وساعدهم فرديناند ملك قشتاله فأبعدوه من مملكته ، فالتجأ إلى جدته الملكة طوطه فى بمبلونة ، وفى تلك الأثناء انتخب الليونيون ابن عمه أردونو ملكا عليهم ، ولما كانت طوطه نفسها عاجزة عن مساعدة حفيدها فقد استنجدت بالخليفة وتوجه كلاهما إلى قرطبة حيث استقبلا استقبالا باهراً ، وأجابهما عبد الرحمن إلى طلبهما وسير جيشاً مع سانكو لاسترداد إمارته فهزم أردونو الذى اعتصم بالجبال ، وفى شهر

الاستنجاد بالخليفة

نيسان سنة ٩٥٩ م أعيدت لسانكو سلطته ، وأصبحت بذلك ليون وقشتالة وجليقية ونافارا خاضعة لنفوذ خليفة قرطبة .

وفاة عبد الرحمن الناصر ٣٥٠ هـ ١٦ تشرين الأول (٩٦١م)

ولكن هذا الخليفة العظيم الشأن لم يتمتع بانتصاره إلا سنتين ، إذ أنه توفى فى ١٦ تشرين الأول سنة ٩٦١ م وعمره ٧٣ سنة بعد أن حكم البلاد نصف قرن كامل .

كان عبد الرحمن الناصر أعظم ملوك بنى أمية بالأندلس دون منازع ، إذ اعتلى عرش مملكة تعصف بها رياح الفوضى والفتن وتفيض بالبغضاء والحسد بين الأمراء ، حتى غدت فريسة للفوضى والحروب الأهلية وظلت معرضة لغزو مسيحى الشمال المستمر ، ولكنه بالرغم من الصعوبات العديدة أنقذ الأندلس وجعلها أقوى وأعظم من ذى قبل ، فساد الأمن وازدهرت البلاد فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، وبلغ نظام الشرطة حدا يستطيع معه الأجنبى أو التاجر السفر فى أى طريق مهما كان وعر المسالك دون خوف أو وجل ؛ وكان رخص تكاليف الحياة وانتشار عادة ركوب الخيل حتى من قبل أفقر الطبقات ، وطلاوة ملابس الفلاحين ، براهين ساطعة على رفاهية الشعب ؛ كما كان ازدهار الحقول وينوع الثمار وكثرة الأشجار الوارفة آية من آيات اعتناء الحكومة بالفلاحة ، أما الأعمال المائية الفخمة ونظام الرى الفنى البديع الذى أخصب الأراضى القاحلة فكانت تثير إعجاب السائح فى تلك البلاد . ولكن الزراعة لم تكن وحدها هى كل ما اعتنى به الناصر ، إذ نالت التجارة والصناعة والعلوم والفنون أيضاً على يديه أكبر تشجيع ، وكان لكل من قرطبة والمرية وأشبيلية وبعض المدن الأخرى شهرة فى عدة صناعات أغنت السكان وزادت فى ثروة البلاد . وقد نمت تجارة أسبانيا نموا عظيما حتى كانت الرسوم الجمركية تؤلف أكبر جزء من إيرادات الدولة التى بلغت فى عهد الناصر زهاء ١٢ مليون دينار ؛ وكانت الغنائم والأفياء التى يستولى عليها جيش الناصر هائلة جدا ، كما أنه بنى أسطولا نافس به

الفاطميين فى النفوذ على بحر الروم وأسس جيشاً منظماً يقول فيه دوزى « ولعله كان أحسن جيش فى العالم » ساعده على التسيطر على مسيحيي الشمال ؛ وكان ما أثار هيبته فى نفوس ملوك النصرانية وأمرائها أن توالت عليه وفودهم وسفراؤهم[1] فى طلب المهادنة والسلام والتحالف ، ووفدت عليه رسل ملك ألمانيا وفرنسا و إيطاليا ، قال دوزى : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكنا نجد إذا ما درسنا ذلك العهد الزاهر أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة أكثر مما يثيرهما المصنوع ، وهذه العبقرية الشاملة التى لم يفلت شيء منها تدعو إلى الإعجاب فى تصرفها نحو الصغائر كما تدعو إليه فى أسمى الأمور . إن ذلك الرجل الحكيم النابه الذى استأثر بمقاليد الحكم وأسس وحدة الأمة ووحدة السلطة معاً وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسى ، والذى اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى مجلس استشارته رجالا من كل دين لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث لا خليفة من خلفاء القرون الوسطى » ؛ غير أن الرواية العربية تصف لنا عبد الرحمن ضعيفاً متقلباً[2] .

الحكم الثانى الملقب بالمستنصر بالله

ولما توفى الناصر خلفه ابنه الحكم الملقب بالمستنصر بالله ، وكان قد اشترك قبل وفاة والده ببضع سنوات فى إدارة شؤون الدولة ، ولهذا ذاعت شهرته فى البلاد النائية بالعدل والحكمة ، و بدلا من أن يحترم زعيما ليون ونافارا وفاة الخليفة

(١) عرفت سنة ٩٤٧ م (٣٣٦ هـ) بسنة وفود ملوك النصرانية على قرطبة ، فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة ، ورسل الملك أوتو الكبير ، ورسل ملك فرنسا ، وأمير آخر فى ماوراء جبال البرنيه يسمى أوكو (هوكو) .

(٢) عرف عن هذا الملك أنه قال ذات يوم : إنه فى حكمه الطويل لم يحرم من السعادة إلا أربعة عشر يوماً فقط ، وذلك أن ابنه اشترك مع الثائرين فحكم عليه بالقتل . ويقال إن أخاه وولى العهد سجد أمام والده يذرف الدمع متوسلا إليه أن يعدل عن قرار المجلس ، فأجابه : إنى كوالد سأذرف الدمع سخياً طوال حياتى ، ولكنى ملك أيضاً ، فإذا تدخلت فى هذه القضية تمزقت أوصال الإمبراطورية . وهكذا نفذ فى الابن حكم الإعدام ، ومنذ ذلك اليوم لم يشاهد عبد الرحمن يبتسم قط .

العظيم الذى أسدى لها تلك الخدمات الجليلة و يعتبرا موته خسارة لا تعوض ، انتهزا تلك السانحة للتملص من شروط المعاهدات والتخلص من سيادة العرب .

خيانة زعيم ليون

وقد ظن سانكو وكارسيا أن « الحكم » الذى كان معروفا بميله للعلم وحبه للسلم قد لا يصر على تنفيذ شروط المعاهدات ، وأنه إذا نشبت بينه و بينهم حرب فلا ينجح فيها نجاح والده ، فاتخذا خطة عدائية دلت على الخيانة والغدر فتماهلا فى هدم الحصون الواقعة على الحدود وتذرعا بكل وسيلة ، كما أن فرديناند كونزاليس كونت قسطيلة شرع فى ذلك الحين فى غزوه ؛ وقد انخدع الزعماء الناكرو الجميل فى فهم حقيقة أخلاق الملك الجديد ، إذ لم يكد يشترك معهم فى مناوشة صغيرة حتى أثبت لهم أن العالم يستطيع أن يكون جندياً ماهراً وأن يتقن الضرب بالسيف كما يتقن الكتابة بالقلم ، فقاد الحكم أول حملة على كونزاليس وألحق بالثائر خسائر فادحة اضطرته إلى الفرار خارج الحدود . وعند عودته منتصراً على كونت قسطيلة وفد عليه أردونو الثالث الذى كان قد عزله سانكو بمساعدة الخليفة السابق ، فاستقبله الحكم استقبالا عظيما ورضى بمحالفته على أن يعيش بسلام مع المسلمين ، وأن يسلم ابنه كارسيا رهينة وأن يقاطع الأمير الثائر كونزاليس ، ووضع الخليفة عندئذ جيشاً بقيادة القائد غالب تحت تصرفه لطرد سانكو من ليون وجيلقية وليقيم أردونو فى مكانه ، ولما كان مركز سانكو متزعزعاً فقد خشى تلك الاستعدادات وأرسل إلى قرطبة وفداً من كبار الأكليروس وأشراف إمارته يتوسل إلى الخليفة أن يعفو عنه ، و يعد الخليفة بالتمسك بالمعاهدات وعدم نكث شروطها ، ولكن لما توفى أردونو بعد بضعة أشهر جنح إلى التمرد ثانية معتمداً على مساعدة زعيم نافارا وقسطيلة وكتالونيا ، رافضاً التمسك بأحكام المعاهدة ، الأمر الذى اضطر الحكم على أن يعلن الحرب على القبائل المسيحية ، وتفرغ فى بادئ الأمر إلى محاربة قسطيلة ، وفتح عنوة سان اشتيبان واضطر كونزاليس على طلب الخضوع فأجاب طلبه ، ولكنه لم يلبث قليلا حتى

نكث العهد ، فبعث « الحكم » بجيشه وعلى رأسه غالب إلى ليون ، فسار عن طريق مدينة سالم حتى أتى إلى موضع يسمى أستا فى منطقة سانكو حيث قابلته قوة ضخمة من الجلالقة فأوقع بهم واكتسح جليقية . وبعد أن عقد الخناصر مع يحيى بن محمد حاكم سرقوسه غزا بلاد البشكنس التى كان زعيمها قد نكث العهد ، وهزم زعيم نافارا واستولى على أخطر مدنه ، « ووقوع قلعة الحرة فى أيدى غالب فى منطقة البشكنس كانت تعد من أخطر الفتوحات » ، فأعاد الحكم تشييد قلاعها وأقام فيها وفى عدد غيرها من المواقع فى نافارا وجليقية وقسطيلة وألبا الحاميات ؛ وبالاختصار أجبر الحكم — مع ما عرف عنه من كره الحرب ودخوله الحرب على غير رغبته — الأعداء فى داخل بلاده أن يطلبوا الصلح ، فقدم سانكو زعيم ليون خضوعه سنة ٦٦٩ م ، وحذا حذوه أمراء كتالونيا وباريل ومونيرا الذين منوا بهزائم منكرة ، وطلبوا تجديد المعاهدات ، وتعهدوا بتخريب القلاع والحصون التى على الحدود الإسلامية والتى كثيراً ما اعتصم بها قطاع الطرق ، وتعهدوا أيضاً أن يمتنعوا عن مساعدة بنى جلدتهم فى الحروب مع العرب وأن يحولوا دون اتحاد العشائر والأمم المسيحية على المسلمين ؛ فأرسل كارسيا زعيم البشكنس سفراء تصحبه هيئة من أشراف بلاطه وأساقفته لطلب الصلح ، ولم يسمح لهم الحكم بمقابلته إلا بعد أن انتصر غالب انتصاراً رائعاً على أهل نافارا فمنحهم نفس الشروط التى منحها لهؤلاء ؛ وفى ذلك الحين وفدت أم أحد الأمراء الأقوياء المسمى بلوذريق بن بلاكاش التى تقع ولايته على تخوم جليقية تطلب الصلح بالنيابة عن ابنها ، فأحسن الخليفة استقبالها وغمرها بالعطايا وأجابها إلى سؤلها ، وبوفاة كونت قسطيلة الثائر سنة ٩٧٠ م استتب السلم فى تلك الولاية .

خضوع سانكو

وبعد سنتين من ذلك التاريخ أرسل الحكم حملة إلى المغرب الأقصى والأوسط لقطع دابر الحركة الفاطمية التى أخذت شكيمتها تقوى فى تلك البلاد ، ويلوح أن غالب القائد قد نجح فى إعادة نفوذ السلطة الأموية فى أفريقيا الغربية ،

٣٦٢ هـ
تشرين الأول
٩٧٢ م
إرسال حملة
إلى المغرب

ونبذت قبائل زناتة ومغراوة ومكناسة طاعة الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، وقرأوا الخطبة باسم الحكم على المنابر ، ووفد كثير من أمراء العلويين الذين سكنوا منذ مدة طويلة فى فاس على أسبانيا حيث أحسنوا وفادتهم ، ونقل الأدارسة إلى منطقة الريف ومنها إلى قرطبة ، ولكنه عاد ونفى بعضاً منهم إلى الإسكندرية .

حب الحكم للعلوم

ويقول ابن خلدون : « فى عهد الحكم زهت الآداب والعلوم » ، وكان الأمير نفسه إماماً لتلك النهضة ، فافتتح معاهد العلم والتربية ، وأنشأ المكاتب العامة فى المدن والعواصم ، وكان له شغف عظيم باقتناء الكتب وإرسال الوفود فى طلبها من جميع الأقطار ، ولاسيما بغداد والقاهرة ودمشق مهود الآداب والعلوم العربية فى المشرق ، وكان يبذل من أجل ذلك أموالا طائلة حتى اجتمع له منها مالم يجتمع لدى غيره من الخلفاء أو أمراء المسلمين فى عهده ، وعين موظفاً لإدارة خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان التى بلغ عدد فهارسها فقط ٤٤ مجلداً[1] ؛ وقد حول « الحكم » بلاد الأندلس إلى سوق يرد إليها إنتاج الممالك الأدبى ، كذلك كان يبذل الأموال الطائلة للحصول على النسخة الأولى من الكتب ، ويقال إن أبا الفرج الأصفهانى أرسل إليه نسخة من كتابه الموسوم بالأغانى قبل ظهوره فى العراق فاشتراه منه بألف دينار ، ويقال إنه أفرد فى قصره عدة غرف لأعمال النسخ والتجليد واستخدم لها أمهر النساخين ؛ ولم يكن محباً لجمع الكتب فحسب بل كان أيضاً عالما مولعاً بالدرس ، فلم يكن ليكتفى بالقراءة السطحية ، إذ قلما نجد كتابا فى خزائنه دون أن يعلق على هوامشه بالملاحظات السديدة ؛ وكان مولعاً بتشجيع العلماء والمصنفين والفلاسفة ، فلجأ إليه العلماء والبحاثون والفلاسفة فأكرم مثواهم وحماهم من اضطهاد المتعصبين ، كذلك زهت فى عهده كافة فروع العلم والآداب . وكان أسلافه قد أسسوا المدارس الأولية وحبسوا عليها الأوقاف « فكان كل فرد فى الأندلس يعرف القراءة والكتابة ، بينما كانت أور با المسيحية

(١) قدر بعض المؤرخين مكتبة الحكم بأربعمائة ألف مجلد .

تتخبط فى دياجير الجهل إذا استثنينا منهم رجال الدين ، وعلى الجملة كان أفراد الطبقة الراقية فى جهل عام وظلام دامس »[١] . ولما كان « الحكم » من المجددين والآخذين بناصر العلم والعلماء ، فقد أسس فى العاصمة وحدها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أولاد الفقراء ، وكانت الدولة تجهزهم جميعا بالكتب مجانا ، ولا ننسى أن جامعة قرطبة[٢] أخذت مكانتها السامية بين أشهر جامعات العالم ، وبخاصة الأزهر الشريف فى القاهرة والنظامية فى بغداد .

وفاة الحكم

وتوفى هذا الأمير الفاضل بقصره بقرطبة فى تشرين الأول سنة ٩٧٦ ، وبموته انتهت عظمة الدولة الأموية فى أسبانيا .

قرطبة

كانت كردوفا أو كما يسميها العرب « قرطبة » واقعه فى سهل خصب واسع على سفح جبال سيرامورينا تؤلف مدرجا بشكل نصف مستدير على الشاطىء الأيمن لنهر الوادى الكبير ، وقد تفنن ملوك العرب فى تجميلها بالأبنية الفخمة الشامخة ، غير أنه لم يبدأ بنظام تجميلها على أصول هندسية بارعة ، والتفنن فى إتقانها بما يعجز عن فهمه مهندسو هذا العصر ، إلا فى عهد عبد الرحمن الداخل ، وكان أول ما قام به « الحكم » عند توليه إقامة القناة التى تحمل الماء العذب من جبل قرطبة إلى المدينة ، وقد واصل خلفاؤه زيادة عدد تلك القنوات حتى فاق نظام جلب ماء الشرب وتوزيعه فى غيره من المدن ، فأجروا المياه العذبة فى قنوات نحاسية فى كل ساحة من ساحات البلد ، وكانت الأحواض والصهاريج مصنوعة من المرمر المنقوش أو من النحاس ، كما كانت فى بعض القصور تصنع من الذهب الإبريز أو الفضة . وكان العرب مغرمين برؤية المياه تجرى على مختلف الأشكال والأنواع ولهذا أنشئت حول القصور حدائق غناء ورياض أنيقة تجرى من تحتها الجداول

---

(١) دوزى .

(٢) ومن أساتذتها إذ ذاك ابن القوطية إمام النحو ، والقالى أستاذ الآداب ، وصاحب الآمالى الكتاب المشهور فى الأدب العربى ، وأبو بكر بن معاوية القرشى النابغة فى علم الحديث . (المعرب)

العذبة . وفى سنة ٩٤٠ شيد « عبد الرحمن الثالث » قناة عظيمة فاقت غيرها فى الصنع والإبداع ، تجرى فيها المياه العذبة من الجبل المجاور إلى المدينة على حنايا معقودة ينساب ماؤها إلى بحيرة عظيمة ، قد أقيم عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنع شديد الروعة يجوز الماء إلى مؤخره فيدفعه إلى البحيرة ، وبجانبه تمثال لإنسان هائل يصب الماء على الأسد ، ومن ثم يتحول الماء الزائد إلى النهر بعد أن تنال المدينة كفايتها . وكان عبد الرحمن الأول قد بنى حديقة الرصافة المشهورة التى أصبحت أنموذجا فى كافة ممالك أوروبا المتمدنة ، إذ كانت زاخرة بالزهور النادرة والأشجار الوارفة التى كانت تجلب إليها من سائر أنحاء العالم ، ومما زاد فى رونق تلك الحديقة الغناء القصر المنيف الذرى الذى كان يطل عليها ، غير أن الخليفة لم يكتف بتهيئة أسباب الراحة لنفسه فحسب ، بل شيد أيضاً الجوامع والحمامات ، وأقام الجسور والقلاع فى كل ولاية من مملكته . ويقال إنه شرع فى بناء المسجد الكبير بقرطبة الذى أصبح آية من آيات الفن والإتقان فى الأندلس ، وأتم بناءه ابنه من بعده ؛ وليس أدل على عظمة قرطبة وفخامتها فى تلك الأيام من قول أحد مؤلفى ذلك العصر : « بأن المسافر يستطيع أن يسير عشرة أميال فى طريقها على ضوء المصابيح » ، ويقول كاتب آخر : « إن المدينة امتدت ٢٤ ميلا طولا و ٦ أميال عرضاً ، وكانت كل هذه المساحة زاخرة بالقصور والجوامع والمنازل والحدائق على ضفاف الوادى الكبير ، وكانت ضواحيها مقسمة إلى ٢٧ حياً يسكنها أفراد الطبقة الغنية ورجال الدولة ، وكان لكل حى جوامعه وأسواقه وحماماته .

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير الذى بناه الداخل وأتمه «هشام الأول» وجمله « الناصر » ، فكان بناءً فخماً محلى بالذهب والفضة ومزيناً بأرقى ذوق وأتم إتقان . وكانت قرطبة تحتوى على مكاتب عديدة . ولم يأل الأغنياء برغم جهلهم جهداً فى جمع الكتب بغية أن يذاع ذكرهم ويشاع خبرهم . ومن القصور الفخمة

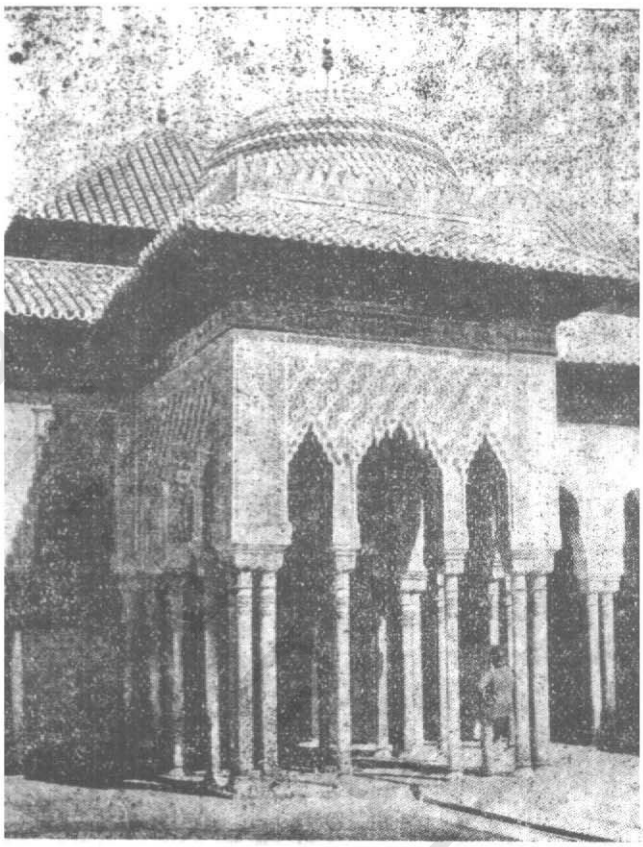

بهو السباع فى قصر الحمراء بغرناطة

الزهراء

فى قرطبة « الزهراء » ، بدأ بإنشائها الخليفة الناصر على أربعة أميال من العاصمة فكانت أعجوبة الزمان ، وهى مصنوعة كلها من المرمر الخالص — الأبيض والأخضر والوردى والمجزع - الذى حمل إلى قرطبة من سائر أنحاء العالم . وكان المجلس الشرقى المعروف (بالمؤنس) منصوباً فيه حوض منقوش بتماثيل الحيوانات المصنوعة من الذهب والمرصعة بالدر النفيس يجرى الماء من أفواهها[1]

---

(١) جاء فى نفح الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج١ وابن خلكان ٢٩ ج٢ ما يلى :
« وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، فى جملتها حوض منقوش بتماثيل الإنسان جيء به من القسطنطينيه ، ونصبه الناصر فى بيت المنام بالمجلس =

باستمرار . وكان إيوان الاستقبال قطعة نادرة من صناعة المرمر والذهب المرصع بالجواهر ؛ ويقول المؤرخون المعاصرون : « إن القلم ليعجز عن وصف دقة الإتقان وجمال التناسب وبهاء الزخرف ، سواء أكان فى المرمر المنقوش أم فى الذهب المصهور ، وتلك العواميد التى تبدو كأنها صبت فى القوالب فخرجت آية فى الإتقان والصقل ؛ ثم النقوش التى تضاهى ألوان التعاريش ، والبحيرات الواسعة والنافورات المزدانة بالصور البديعة » .

وألحق بالحدائق حظائر للوحوش الكاسرة فسيحة البناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، وكان يعلو بابها الأوسط تمثال الملكة التى سميت المدينة باسمها ؛ وكان بقرب قصر الزهراء وحدائقه الناضرة عدة أبنية خصصت لحاشية الخليفة واختط بقربها مدينة الزهراء[1] .

ضاهت قرطبة فى عهد ملوكها الأمويين العظام بجوامعها الثلاثة الآلاف والثمانمائة ، وقصورها الستين ألفاً ، ومنازلها المائتى ألف ، وحوانيتها الثمانين ألفاً وفنادقها ، مدينة بغداد فى اتساعها وعظمتها ، وقد طار صيتها إلى أقاصى البلاد الألمانية فدعتها الراهبة السكسونية هورسويتا[2] « بزينة العالم » ، وقد بلغ عدد سكان قرطبة فى أيام عظمتها مليون نسمة فى حين أنها لا تزيد فى الوقت الحاضر عن ٣٥ ألف .

= الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى ، مما صنع بدار الصناعة فى قرطبة بصورة أسد بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفى المجنبتين حمامة ، وشاهين ، وطاووس ، ودجاجة ، وديك ، وحدأة ، ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يجرى الماء من أفواهها . (المعرب)

(١) كان يتصرف فى عمارة الزهراء كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ١٥٠٠ دابة ، وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة . (المقرى)

(٢) يقول دوزى إنها كاتبة اشتهرت فى النصف الأخير من القرن العاشر بأشعارها وروايتها باللغة اللاتينية .

غير أن قرطبة لم تكن مركز الثقافة والعلم والصناعة والتجارة فحسب بل كانت أيضاً الموطن الذى ازدهرت فيه الفروسية التى تعد من خصائص الخلق العربى ، غير أنها لم تحدد قواعدها وتعين أنظمتها وتلمع مبادئها إلا فى قرطبة فى عهد الناصر وابنه[1] ، ففى ذلك العهد أخذت تتطور مبادئ الفروسية من تلقاء نفسها مقترنة بالنخوة واحترام الجنس اللطيف . ويقول كاتب مبدع آخر إن الفروسية بأصولها التى انتشرت فى الأمم المسيحية فى الغرب كانت قد زهت بين المسلمين فى عهد الناصر والحكم والمنصور ، فكان الفرسان الأجانب يفدون مطمئنين إلى بلاد الأندلس لمبارزة الفرسان المسلمين ، كما بطلت العادة القديمة التى كان يتبعها الفرسان عند دخول حومة الوغى والمناداة بأسماء أخواتهم أو حبيباتهم وأخذ الفارس يدخل الحلبة لابساً على صدره أو خوذته شيئاً من ذكرى محبوبته وأخذت السيدة المسلمة تؤلف عنصراً بارزاً بين النظارة فى مشاهدة المبارزة التى كانت تقام فى العاصمة ، وكان حضورها فى تلك الاحتفالات العامة يكسب المنظر هيبة ووقاراً ؛ وأدى الاختلاط الشريف إلى رقة العاطفة وتصفية الأخلاق الأمر الذى لا يستطيع الهندى المسلم فى الوقت الحاضر أن يدرك مداه . وقد بلغ العرب إلى آخر عهدهم فى أسبانيا أرفع درجات النخوة[2] ورقة الشمائل ، وكانت الصفات العشر التى يجب أن يتحلى بها الفارس هى : التقوى والشجاعة ورقة الشمائل والبسالة ونظم الشعر والبلاغة والمهارة فى ركوب الخيل واستعمال السيف والرمح والنشاب . الفروسية

---

(١) رينو .

(٢) لما حاصر المسلمون الملكة الفونس السابعة فى قلعة أزيكا سنة ١١٣٩ عنفت الملكة الفرسان المسلمين على ما أبدوه من الخشونة فى مهاجمتهم قلعة تحميها امرأة فتقبلوا توبيخها بصدور رحبة وطلبوا إليها أن تطلع عليهم من شرفة قصرها ، وعند ما ثبت لهم صحة ادعائها أدوا لها واجب التحية ورفعوا الحصار .